

# الدرس اللغوي المعاصر عند العرب بين النظر والنموذج

أحمد العلوي الأطلسي

عرف العرب قديما تجربة لغوية كسائر الامم المتحضرة ، وقد تحلوا بكثير من الصبر لاقامتها خصوصا في القرن الثاني والثالث . وامتازت عن تجربتهم المعاصرة بكونها كانت تتصل بحقل دراستها اتصالا مباشرا . كانت تبحث جادة عن المجموع اللغوي Corpus ولم تكن نظريتها اللغوية عائمة في الهواء مجلوبة عن غير العرب من الامم ومجردة عن خيوطها التطبيقية . اما في العصر الحاضر فان اعمال اللغويين العرب المرتبطين بالروح العامة للدراسات الانسانية المعاصرة لم ترق مع الاسف الى المجال التطبيقى الذى كان منطلق الدراسات العربية اللغوية القديمة واكتفت باجتراح الافكار والنظريات الحديثة وترجمتها . وهذا يعنى ان اللغويين العرب المعاصرين لم يفهموا روح علم اللغة الحديث فهما جيدا اذ اقل ما ينبغي لهم ان يفهموه هو ان هذه النتائج التى ينقلونها ويلحون على علميتها ليست الا نتيجة ممارسة طويلة لمجموعات لغوية ولاصناف من اللهجات واللغات فى اطار الامة الواحدة او فى اطار اوربا او فى اطار دائرة اوسع . ونظن ان لهذا سببا نصنفه فيما يلى :

1 - احتقار العربى المؤسف للرصيد اللغوى الذى تمتلئ به الساحة العربية . وهو رصيد يمثل فى طائفة لا متناهية من اللهجات واللغات التى لو جعلت اسما لدرس لغوى جدى لا يمكن اقامة علم لغوى ممتاز ومواز لعلم اللغة العربى يتبادل معه المعلومات والفوائد . ويكون بجانب غيره من الممارسات اللغوية لبنة من لبنات البناء الشامخ الذى هو علم اللغة العام .

2 - نفور العربى المؤسف من الممارسات الجزئية او الدقيقة ، واستمناعه بالنتائج العامة والنظريات الشاملة التى قد تكون نهاية لدراسات جزئية خاصة بلغة ما ولكنها لا ينبغي ان تغنى اللغوى العربى عن ما وراثياتها وهذه الماورائيات هى الممارسات المتصلة بالواقع اللغوى الخاص والتى تتبع سبيلا علميا فى اقامة نتائجها .

3 - عجز طائفة من العرب عن التمييز بين ما هو فومى او دينى وبين ما هو علمى . هذا العجز يجعل هذه الطائفة من العرب مستلبة للماضى العربى اللغوى لانها تخلط بين ايمانها باللغة العربية الكلاسيكية وبين مكان البحث اللغوى ومنتهاه الذى لا ينبغي ان يتجه الا الى دراسة هذه العربية الكلاسيكية فى نظرها . بينما الواقع يقضى بالتمييز بين هذا الايمان المشروع وبين البحث عن ميدان اوسع للممارسات اللغوية. هذا الميدان الاوسع متيسر فى البلاد العربية وقمين بان يساهم مساهمة هامة فى اقامة ما يمكن ان يدعى بعلم اللغة العربى المنبنى على مواد عربية . ان اصحاب الاستلاب اللغوى المتجه نحو الماضى لا يجنسون من موقفهم الا استلابا جديدا متجها نحو الغرب لانهم يساعدون على اهمال الواقع اللغوى العربى الذى بإمكانه حفظ الاصاله العربيه فى المجال اللغوى دون الاخلال بمعاصرة التجربة العربيه المتوقعة ومساريتها للروح العامة للدراسات الانسانية .

ان هذه الاسباب الثلاثة غير نهائية ولكنها اوضح ما يمكن الاستناد اليه فى تفسير اقتناع التجربة اللغوية المعاصرة بالنتائج العامة للممارسات اللغوية الغربية . وهو اقتناع يجعلنا نشبه عمل اللغة العرب المعاصرين بمن يخص بناء ابتداء من الطابق الاعلى غافلا عن الاسس والركائز السفلى التى يحمل عليها البناء المفحوص. ان هذا الفحص بهذا الشكل يترك فى ذهن الفاحص ضروبا من الدهشة والانبهار امام هذا البناء العالى الضامخ . ولا يبعث هذه العواطف فى نفس الفاحص الا جهله بالاعادة والاساس وغفلته عن المبادئ الاولى والتطبيقات الجزئية والتركيبات الحرفية . ان نوعا من هذه العواطف لا يفارق نفوس اللغويين العرب المعاصرين وقارئهم . وان اكبر علامة على عواطف الدهشة والاعجاب لى اقتناع هؤلاء فى اطار منقولاتهم النظرية بالامثلة الاوربية او ترجماتها وبالعناوين الكبرى التى تسقط فى روع القارئ ان ما يقدم فى هذه الدراسات علم نهائى ما على العرب الا ان يضيفوه الى محفوظاتهم القديمة والجديدة . وفى هذا اغفال للحركة الدائبة التى تهز كيان العلم الغربى الذى يتصل كل الاتصال بالتطبيقات . ويكفى ان ننظر الى المشاكل النحوية التى ينقلها العرب فى صورتها النظرية لنجدها فى واد ودراساتهم النحوية فى واد آخر . ويمكن ان نذكر كثيرا من الاسماء الالامعة فى المجال اللغوى العربى لندل على ما تقدم . فتمام حسان يضع كتابا عن مناهج البحث فى اللغة وينقل آراء الغربيين وغيرهم ويحاول ان يقنع القارئ باله من اتباع هذه الطرق المستحدثة فى الغرب والتى لقنها فى انجلترا ولكنه ما ان يحاول الحديث عن العربية بخاصة فى كتابه الآخر عنها حتى ينسى مقدماته فى كتابه عن المناهج ليستقط فى عراك عنيف مع اللغة

القدماء لا يخرج به عن خطهم . وهذا مثال بجانبه كثير من الامثلة . ولنشر  
 في هذا المجال الى محمد عيد الذي لا ينسى يردد في كتبه عبارة علم اللغة  
 الحديث بينما يسير في الواقع على نهج من لا يرى بأسا في الإشارة الى  
 اليسار وهو يلوى الى اليمين . فعواطف الدهشة والاعجاب تقف بلغويننا  
 على باب علم اللغة الغربي لا يتعدونه الى عمق التجربة الغربية مكتفين  
 في المجال التطبيقي بالارتداد الى مناقشات قديمة عرفت المساحة العربية  
 من زمان غير بعيد . ولو تعدوا تلك العتبة لعرفوا ان روح التجربة اللغوية  
 المعاصرة يكمن في رجوعهم الى واقعهم اللغوي والانطلاق منه ، وفي هذه  
 الحالة كانت ستزول عواطف الدهشة والانبهار لتحل محلها ممارسات  
 علمية لها اساسها . ويكفي في هذا المجال ان تقارن بين لغوي كتمام حسان  
 المشار اليه قبل وبين لغوي فرنسي هو جان دوبوا . لقد اهتم هذا الاخير  
 باعطاء التطبيقات المختلفة للنظريات النحوية في نطاق اللغة الفرنسية فلم  
 يكتف بالحدوث عن البنيوية النظرية او عن التوليدية او التحويلية على  
 المستوى النظري الصرف ولكنه قدم بالتتابع نحوا بنويا ثم تحويليا للغة  
 الفرنسية واضعا بين هذه التجارب وما سبقها من تجارب الاكاديمية  
 الفرنسية وكريفيس وغيرهما قطيعة منهجية مشروعة . وفي مجال آخر هو  
 المجال المعجمي قدم تطبيقا للنظرية المعجمية البنيوية في عمله عن اللغة  
 السياسية والاجتماعية الفرنسية في فترة من القرن 19 . وحين يقدم جان  
 دوبوا وأمثاله من الغربيين على هذه الاعمال التطبيقية فانهم يضعون هذه  
 النظريات الحديثة في وضعها الحقيقي وهو وضع البقاء الذي تقضي به  
 صحتها او وضع الموت الذي قد يكون من نصيبها ان ظهر في العمل  
 التطبيقي عيب كبير غير مقبول ، وهو وضع يكتم افواه المد العرجى لانه  
 وضع تطبيقي لا يكتفي بسرد النظريات امام الابنية اللغوية التقليدية . اما  
 المنبهرون من العرب بالتجربة الغربية كتمام حسان فانهم يغفلون في  
 ترجماتهم او في تأليفاتهم الشبيهة بالترجمة عن الاعمال التطبيقية مكتفية  
 بنقل النظريات التي لا تقوم ولن تقوم لها قائمة امام النماذج التطبيقية  
 للفكر العربي القديم . وحين يقدمون على عمل تطبيقي فانهم يشاققون الى  
 التجارب القديمة التي يحسنونها وكان انبهارهم امام الاعمال النظرية  
 الغربية يجعل منهم قوما عاجزين عن مسابقة هذه الاعمال الى النهاية .  
 ان الدرس اللغوي العربي لن يستقيم امره الا باتباع الاسس التالية :  
 I - الاهتمام بالواقع اللغوي العربي الفنى وجعله اساسا للعلم  
 لغوي عام . والانطلاق من ارضيته التطبيقية الى آفاق نظريات عامة .  
 2 - في خصوص اللغة العربية الكلاسيكية والتجربة اللغوية المرتبطة  
 بها يجب فصل هذه التجربة عنها نظرا وعملا . وفي هذه الحالة سيلمز  
 النحوي المعاصر قراءة اللغة العربية قراءة مستقلة عن قراءات اللغة القدماء

لها. وستصبح اذك اللغة العربية بغناها المعروف اداة ممتازة في يد اللغوى العربى لا يحتكرها النحو القديم بنظريات المعروفة .

3 - يتصل بالنقطة السالفة انكار التطابق المطلق والتاريخى بين العربية والنحو ، وانكار استئثار اللغة العربية المشتركة (الكلاسيكية) بالاهتمام اللغوى .

وباختصار فان ما تقدم لن يكون الا استفادة من تاريخ الشعوب الحديثة التى اجادت فى حقل اللغويات، مثل السلافيين والالمان والامريكان الذين لم يسيطروا بأفكارهم وتعاليمهم على الحقل اللغوى الا للاهتمام البالغ بواقعهم اللغوى المباشر الذى طبع دراساتهم . ولن يكون ما تقدم ايضا الا تنبيهها الى ان الاستلاب اللغوى الذى يعانى منه المجتمع العربى لا ينتهى ولن ينتهى امره الا بالتخلى عنه سواء كان متجها نحو الماضى ام نحو الغرب

مكناس - احمد العلوى الاطلسى